

يتوق الانسان دوماً الى الهدوء الفكري ، الى التعلق بقم وإنظمة معينة كي يخرج من حالة الشك والارتباك الى الاستقرار ضمن قوانين محددة واهداف واضحة مقررة . هذا الشعور هو من صميم

مسؤولية الانسان

بهم . صادر يونس

نهي فيه هذه الحرية ونشق لنا بواسطتها طريقنا في الحياة نصبح نحن اصحاب الكلمة الفصل : نحن المجتمع ، نحن الدين ، نحن القوانين ،

ويبطل كل شيء لا نختاره عن طريق الادراك الواعي ، عن طريق الحرية . هذا لا يعني ابدأ ان الفرد هو مبدع الديانة أو القانون بل ان هذه الديانة أو هذا القانون لا يؤلفان قيمة بدون عمل الفرد .

يقولون ان لا يد للانسان في تطور التاريخ ومحاولون ان يبرهنوا على ذلك عن طريق ما يسمونه بالمنطق العلمي ، اي ان هناك تطوراً منسجماً يسير وفق قوانين ثابتة بصورة مستقلة عن الانسان . ولكن سطحية مثل هذا التفكير تبدو واضحة للعيان . فالمجتمع لا يمكنه ان يتطور الا بنتيجة عمل افراده ، التاريخ ليس شيئاً مستقلاً عن الانسان بل من صنعه ، التاريخ يسير حسب إرادة الانسان . لهذا فباستطاعة هذا الأخير ان يكون سلبياً أو ايجابياً تجاه مجتمعه . وهذا يفسر لنا ان أهم حوادث التاريخ كالثورات الكبرى مثلاً لم تكن نتيجة لتطور طبيعي فقط بل تعبيراً عن ارادة الناس فهي بالتالي من صنعهم ولم تفرض عليهم فرضاً . باستطاعة أي شعب ان يبدل في أي وقت اراد اوضاعه الاجتماعية ونظم حياته لانه هو هو واضع هذه النظم والمسؤول الاول والاخير عنها . فالمسؤولية إذن لا يمكن ان تقع على التاريخ او المجتمع بل على الانسان لان بدونه لا يوجد تاريخ أو مجتمع . هنا يبدأ قلق الانسان الحقيقي ، لانه يفضل العيش على هامش الاوضاع التي تحيط به وان يؤمن بأن الاشياء تسير وفق قوانينها الخاصة لينجو من تحمّل المسؤولية تجاهها .

ولكن التخلص من هذا العبء (اذا جاز مثل هذا التعبير) هو بالواقع تهرب من الحقيقة ، تهرب من المعنى الصحيح للوجود . لانه متى كف الانسان عن عملية صنع العالم فأى معنى لوجوده ؟ أي معنى لهذا الوجود حين يكف عن ان يكون منبعاً للحرية والابداع ؟ اي معنى للانسان حين لا يستطيع ان يتحمّل مسؤولية الاوضاع التي يعيش فيها وحين لا يعمل شيئاً لتقييم كل ما حوله فيصبح ذلك بالنسبة له وسيلة للتحرر والتجدد المستمرين .

فبقدر وعي الانسان لحقيقة وجوده ، بقدر وعيه لقدرته التي لا تحدد ستكشف الاشياء عن ان تظل غريبة بالنسبة له أو مفروضة عليه لتصبح ثمرة إرادته الواعية في عملها الخلاق .

صادر يونس

الانسان . انه كما يقول « بشلارا » شعور بان الاشياء مرتبة ترتيباً اساسياً . وهو يفسر لنا النجاح الذي لقيه تعاليم القرن الثامن عشر في اوروبا ، تلك التعاليم التي تلخص يجعلها الانسان مستقلاً عن العالم الخارجي الذي يحيط به ويجعله صدى ليس الا لما يحدث في هذا العالم . فهناك قوانين مقررة تسيّر المجتمع ، مقررة ليس عن طريق الانسان وبعمله الواعي الخلاق ، بل بصورة مستقلة تماماً عن ارادته . هذه النزعة المادية التي ترجع الى فصل « ديكاروت » العالم الداخلي عن العالم الخارجي لم تظهر عفواً بل نتيجة لتطور هائل في العلوم الطبيعية بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ . ويعود النجاح الذي لقيه هذه النزعة ليس فقط الى روح العصر الذي انشردت فيه بل لكونها حررت الانسان من سائر مسؤولياته وجعلته يعيش بطمأنينة فكرية لانه لا يستطيع ان يمنع وقوع ما هو مقرر ان يقع . وبذلك ارحى الانسان عن كاهله عبئاً عظيماً هو مصدر دائم لقلقه . غير ان الانسان بتخليه عن واقع كونه القوة الخلاقة في التاريخ يصبح كائناً فقد كل امكانيات الابداع ، كائناً يخضع لقوانين التطور المقررة دون ان يكون المبدع والموجه لهذه القوانين . والنتيجة الختمية لهذا الامر هو تخليه عن مهمته الكبرى التي تعطي معنى لوجوده واعني بها انسة الطبيعة وتوجيهها على النحو الذي يريد ، وعن كونه القوة المسيرة للتاريخ وليس مجرد آلة لا واعية . تلك هي الميزة الكبرى للانسان بالنسبة الى سائر الخلوقات وذلك هو محور وجوده .

فنحن أمام أمرين : اما ان نعتبر الانسان مجرد تركيب جسيمي يعمل بتأثرات خارجية عن ارادته او ان نقول بجرية الانسان وبقدرته الواعية التي يستطيع بها ان يوجه حياته ويوجه العالم الذي يعيش فيه . العالم عدم بالنسبة لنا اذا لم نجعل منه عالماً ، اذا لم نفعّل به إرادتنا . فلا وجود لعالم خارج الانسان . العالم هو للانسان كما يقول « هيدغر » ، لانه صانعه ، فهو الذي يسير به من حالة الى اخرى فيغيّر معالمه ويبدل بقدرته الخلاقة الكثير من أسسه . لقد اعتقد كثيرون في الماضي . ولا يزال البعض يعتقد حتى اليوم بأن هناك أوضاعاً اجتماعية تفرض على الانسان منذ صغره : الدين ، الدولة ، القوانين الخ ... فهي بنظر « ديوكايم » مثلاً تفرض من فوق بصورة مستقلة تماماً عن الانسان . ولكنهم ينسون شيئاً بسيطاً هو ان باستطاعة الانسان ، أي إنسان ، ان يتخذ موقفاً معيناً من هذه الاوضاع . استطاع مثلاً ان ارفض هذه الديانة وأختار سواها او ان ارفض هذا النظام الاجتماعي وأنادي بغيره .

هنا يكمن جوهر الحرية الانسانية اللامحدودة فبالقدر الذي